

المحور الثالث: الهوية والعولمة الثقافية

فكرة العولمة تمتد جذورها الأولى من خمسة قرون بظهور فكرة الدولة القومية محل فكرة الدولة الإقطاعية.. ومع زيادة التقدم أصبحت الدولة لا تستوعب حجم السوق فظهرت الشركات متعددة الجنسيات، وحلّت في مجال السوق محل الدولة تدريجياً، وتشير التقديرات إلى أن عدد الشركات المتعددة الجنسيات يناهز 65 ألف شركة.

ويُقصد بثقافة العولمة الإطار المعرفي الذي يجعل النظام الرأسمالي مقبولاً من سائر الشعوب، ولا يكون في هذه الحالة في صورة ظاهرة تتمثل في إخضاع عقل هذه الشعوب لتقبل النظام الرأسمالي فحسب؛ بل إعلاناً للتكثيف من قبل مفكرين استراتيجيين مخططين لوضع دعائم فكر بعينه ييسر تقبل فكرة الانخراط في حركة الرأسمال وسيروته كما يحلو للغرب أن يسيره.

أما مفهوم الهوية الثقافية يتطابق ومفهوم الحضارة، حيث يرى "هيمنتجتون" أن الحضارة هي هوية ثقافية، أي أن حضارة أي مجتمع هي الهوية الثقافية لذلك المجتمع، وأن الحضارة عنده تعني أعلى تجمع ثقافي، ومحدداتها هي اللغة والتاريخ والدين والعادات والمؤسسات".

وعند الحديث عن المنطقة العربية فإن أزمة الثقافة تتجدد بشكل خاص في إعادة تعريف جديدة لأزمة الهوية، والتي تبرز بوضوح مع عملية العولمة. كما أن قضايا الإمبريالية الثقافية والإعلامية كانت سائدة تماماً في الأوساط النظرية حتى وقت قريب، وهي قضايا كانت مشروطة بـ **الحمية التكنولوجية**، لا سيما مع تطور تقنيات الاتصال الجديدة. ومع ذلك، فإن منظور الإمبريالية الثقافية - وفقاً لـ 'ماكوايل' - ينبثق من حركة مقاومة مؤثرة أوجدتها الدول النامية في نضالها للحفاظ على نوازلها الثقافية واستقلالها السياسي، والذي كان يُنظر إليه على أنه في خطر بسبب الإمبريالية الثقافية والإعلامية الغربية.

كما يقول جون "توملينسون": "حتى اليوم... لا يزال هناك سبب يجعل الإمبريالية الثقافية أمراً يجب أخذه على محمل الجد، كوجهة نظر يمكن من خلالها رؤية العولمة الثقافية! ووفقاً لـ "توملينسون" يعود ذلك إلى حقيقة أن القضايا الحقيقية التي تتناولها السياسات الثقافية تظهر أن بعض الحكومات الوطنية لا تزال تأخذ تهديد الإمبريالية الثقافية على محمل الجد، ولهذا السبب يسعى "توملينسون" إلى استيعاب نظريات العولمة الثقافية ضمن نظرية الإمبريالية الثقافية ويقدم ثلاثة أسباب لذلك:

أولاً: الوجود الطاعي للمنتجات الثقافية الغربية، أي أن هناك الكثير من الأدلة على أن الذوق والممارسة الغربية أصبحت عالميين .

ثانياً: هو التاريخ الطويل للإمبريالية الغربية وحقيقة أن ما نسميه دول العالم الثالث هي دول تعيش في 'رابطة تاريخية من التبعية السياسية والاقتصادية لدول الغرب المتقدم، وغالباً ما تكون مرتبطة بماضيها الاستعماري

ثالثاً: لتحويل العولمة الثقافية إلى إمبريالية ثقافية هو الموقع المركزي للرأسمالية كتأثير ثقافي: 'العولمة هي في الأساس شكل متقدم من العولمة الرأسمالية!'

ومع ذلك يشير "توملينسون" إلى حدود نموذج الإمبريالية الثقافية لأن التأثير الثقافي لن يسير في المسارات الخطية التي تتوقعها الإمبريالية الثقافية. 'من الواضح تماماً أن العولمة لا تعد باليوتوبيا التكنولوجية (القرية العالمية) التي بشر بها ماكلوهان، ولكن من غير المرجح أيضاً أن تتسبب في ديستوبيا متجانسة حيث يهيمن نفس الأشخاص في السلطة، وهو ما تتوقعه أطروحات الإمبريالية الثقافية... ربما

الشيء الوحيد الذي يمكننا التنبؤ به اليوم هو مستقبل ثقافي غير مؤكد، وغير متكافئ، ولكنه منفتح جزئياً!"

إن عملية العولمة في جوهرها هي عملية لامركزية تُنتج أشكالاً جديدة من المزايا والعيوب، وقد بدأت هذه الأشكال في العالم المعولم تتبلور في اتجاهين متوازيين: الأول يتجلى في كونه تأكيداً على القيم الثقافية الذاتية من جهة، والثاني يظهر في صورة توحيدٍ للسلع الثقافية التي أصبحت مجردة من الهوية الشخصية ضمن نمطٍ من التجانس الثقافي المعياري من جهة أخرى.

وقد ارتبط ظهور العولمة بتفوق الدولة الأميركية المهيمنة جيوسياسياً واقتصادياً وعسكرياً وعلمياً، خلال مرحلة النصف الثاني من القرن العشرين، بعد نهاية الحرب الباردة وانتهاء الاتحاد السوفياتي، عندما صُنِعَ نظام عالمي جديد، وفُرضت ثقافة الأقطاب الاقتصادية العالمية الكبرى على باقي ثقافات المعمورة، تحت سيطرة الثقافة الأقوى؛ ثقافة الدولة الأميركية العظمى.

فالعولمة تقوم بشكل مباشر على الحضارة الغربية، التي توجهها المبادئ اللادينية الوضعية كما نعلم، والتي لا تقيم وزناً لقضايا الإيمان بالخالق والنبوات، وسائر الأمور الغيبية. كما أنها تعمل على إشاعة الحياة المادية والإلحادية عبر شبكاتها وأجهزتها العالمية، بأساليب ووسائل تقوم على الإغراء والخداع، بهدف التأثير في النفس الإنسانية، وتُفقد المرء كيانه وشخصيته، وعقله وقلبه وروحه، وتُفرغه من أصول الإيمان والأخلاق الحميدة.

ولقد أثرت العولمة الثقافية في مئات الملايين من المسلمين بصورة مباشرة أو غير مباشرة، خاصة الشباب منهم، حيث تم تغريب الشاب المسلم وعزله عن قضاياه وهمومه الإسلامية، وإدخال الضعف لديه، والتشكيك في جميع قناعاته الدينية، وهويته الثقافية، وجرّه نحو توافه الأمور التي تقتل الوقت، ما بات يعود عليه بالضرر البالغ في دينه وأخلاقه وسلوكه وحركته في الحياة.